الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة المؤمنون

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/مصطفى الصاوى الجوينى
الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٢٦٤٧٠

الطبعة الأولى

رجب ١٣٩٦ هـ

يوليو ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد لسورة « المؤمنون »

تعرض السورة – كإحدى السور المكية – لرد اتهامات الماديين الوثنيين بمكة وادعاءاتهم ، كمجتمع يمثل المادية فى كل عهد :

* فتعرضت لإنكار البعث فى الآيات : الخامسة عشرة . . والسادسة عشرة . . والخامسة والثلاثين . . والسادسة والثلاثين . . والسابعة والثلاثين . . والتاسعة والسبعين . . إلى الثالثة والثمانين (١٥ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٧٩ – ٨٣) :

* ولإنكار بشرية الرسول فى الآيات : الرابعة والعشرين .. والخامسة والعشرين . . والثالثة والثلاثين . . والرابعة والثلاثين .. والسابعة والأربعين (٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧) .

* ولإنكار وحدة الألوهية ، إما بسبب ادعاء الولد ونسبته إلى الله . . أو بسبب أدعاء الشريك له ، فى الآيتين : الواحدة والتسعين..والسابعة عشرة بعد المائة (٩١ ، ١١٧) .

* كما تعرض للحكم على المؤمنين بالفلاح ، ومن هم ؟ فى الآيات من الأولى . . إلى الإحدى عشرة (١ – ١١) . . وللحكم على الكافرين بعدم الفلاح ، ومن هم ؟ فى الآية : السابعة عشرة بعد المائة (١١٧) .

* وأولت تطور الإنسان فى خلقه عناية فى تفصيله ودقة مراحله ، مما يدل على إبداع الخالق سبحانه فيما خلق ، فى الآيات : من الثانية عشرة . .

إلى الرابعة عشرة . . وفى الثامنة والسبعين (١٣ – ١٤ ، ٧٨) .

وإذ هى تحكم على المؤمنين بالفلاح وتصفهم: من هم ؟ . . تذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع :

النوع الأول :ما يتصل بالعبادة فتذكر عبادة الوحدة فى الألوهية ، وهى الصلاة . . وعبادة التكافل فى المجتمع ، وهى الزكاة .

النوع الثانى : ما يتصل بالسلوك الفردى ، فتذكر :الجد فى الحياة ، وتجنب اللغو فى كل مجال من مجالاتها .

النوع الثالث: وما يتصل بالسلوك الجماعى ، فتذكر : الوفاء فى الأداء للأمانة . . والرعاية للعهد . . وتجنب الاعتداء على الأعراض .وهى صفات تنقل الفرد من المجتمع الجاهلى . . إلى المجتمع الحضارى . . تنقله من المجتمع الأنانى . . إلى المجتمع المتكافل .

وإذ هى تحكم على الماديين الكافرين بعدم الفلاح وتصفهم : من هم ؟ تذكر من صفاتهم تلك الصفة الرئيسية ، وهى : إشراكهم مع الله آلهة أخرى فى التقديس والعبادة . وهى صفة ترتبط بها كل صفة أخرى غير إنسانية ،من : الأنانية . .إلى اللا أخلاقيةفى السلوك . . وإلى عدم الإحساس بالمسئولية الفردية فى التصرفات إزاء حقوق الآخرين .

وإذ تسمى بسورة : المؤمنون . . فلأنهاوضعت إطاراً أوسع لتحديدهم من أى إطار آخر جاء فى سورة مكية أخرى ، ولأنها جعلت كذلك بادىء ذى بدء : الفلاح أمراً لاحقا لإيمانهم ، مما يدل على تحدى المادية وطغيانها، تحديا واضحا ،سواء : فىالمثابرةفى الدعوةإلىوحدة الألوهية..أو فى انتظار النصر النهائى عليها وعلى المعارضين بسببها ، لرسالة الإيمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

هؤلاء هم المؤمنون الذين يصاحبهم الفلاح فى دنياهم ..ويرثون الفردوس والخلود فيها : فى آخرتهم . وفلاحهم فى الانتصار على أنفسهم وشهواتهم.. وفى الانتصار على أعدائهم فى حياتهم . لأنهم إذا انتصروا على شهواتهم لم يمكنوا أحداً منهم ، وتمكنوا هم من غيرهم . فلا يذل الإنسان بسبب الهزيمة أو السؤال والحاجة ، سوى : أن تسود شهوته على نفسه ، وتتحكم فى منطقه وتصرفه . والذليل لا يعز . . وصاحب الحاجة لا يقوى . « قد أفلح المؤمنون (أى صاحب الفلاح والنجاح كل مؤمن : فى حياته الأولى . . والثانية . وهذا إخبار من الله على سبيل الحقيقة والتأكيد . . هو إرادته التى لا تنقض بحال . . هو قانون للانسان لا يتخلف عنه إن فى دائرة الفرد .. أو فى دائرة المجتمع . فالنجاح يدور مع الإيمان..إن وجد الإيمان وجد النجاح . ولكن من هم المؤمنون الذين يتأكد نجاحهم فى المرحلة الأولى من حياتهم . . وفى المرحلة الثانية منها ، كذلك ؟) . الذين هم فى صلاتهم خاشعون (أى هم المتواضعون لله فى صلاتهم . .

هم الذين يعرفون الله حق معرفته فى الصلاة ، فلا يشعرون إلا بوجود الله فى حياتهم عند مباشرتها .

أما وجودهم : هم ، وأما وجود عالمهم ودنياهم . . فأمر لا يذكرونه إذا وقفوا أمام الله فى الصلاة وأدوها راكعين وساجدين له وحده). والذين هم عن اللغو معرضون (.. وهم كذلك : الذين يتجاوزون فى حياتهم عن كل ما لا يعنيهم من قول ، أو فعل . . لا يهتمون إلا بما هو مثمر لهم أو لغيرهم .

هم الجادون وأصحاب العمل الإيجابى ..لا يعرفون التسكع ولا المشاركة فى سخف النكات أو مبتذل التصرفات) . والذين هم للزكاة فاعلون (. . وهم أيضا الذين يقومون بإخراج الزكاة ،تو استحقاقها ..أى هم الذين يشركون غيرهم فى أموالهم ويؤدون واجب الأموال فيها : للمحرومين وأصحاب الشدائد .

هم الذين خرجوا عن دائرة أنانيتهم فاعترفوا بغيرهم ، وبحقوقهم فى الحياة ، كما يعترفون بأنفسهم وبحقوقهم فيها . .

هم الذين لا يكون سعيهم لجمع المال وحده، ولكن يكون سعيهم للتنازل عنه لتيسير أمر الحياة على الآخرين) . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين (وكذلك هم الذين يضيفون إلى ما سبق : عدم اعتدائهم على أعراض غيرهم .

هم الذين لا يكشفون عوراتهم إلا على أزواجهم ، أو على من سبينهم فى حرب فأصبحن غنائم وملكا لهم . . أى هم الذين لا يباشرون المعاشرة الجنسية إلا بالطريق الذى أحله الله لهم . . فلا يقتربون من الزنا وتدنيس

الأعراض ، ولا يدخلون مجال الحرمات للآخرين ، وهو أكثر المجالات حساسية فى المجتمع . وفى دائرة ما يباح لهم لا لوم عليهم من أحد . لأنه لا اعتداء على أحد فيه) . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (ومن يستهدف بمعاشرته الجنسية وراء ما أحل له من أربع حرائر ، وما شاء مما ملكت يداه . . فهو معتد ، ومتجاوز باعتدائه كل دائرة تتسم بالإنسانية) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (وفوق تلك الصفات : هم الذين يرعون : حق الأمانة فى العمل وأداء الوظيفة .. وحق الأمانة فى الولاية.. وحق الأمانة فى الأسرة وتوجيه الأولاد . . وحق الأمانة فى الشورى . . كما يرعون حق العهد لمن أعطى له . وهو عهد الله فى سبيل الخير والمصلحة) والذين هم على صلواتهم يحافظون (وكذلك هم الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها ، ولا يتخلفون عن أدائها أو يؤخرون أداءها لسبب من الأسباب . لأن المحافظة على أداء الصلاة أمارة على الاتجاه فى طاعة الله والإخلاص له وحده . . وأمارة أيضا : على أن الدنيا مهما كان السعى فيها والانشغال بنعم الله التى تصيبه منها ، لا تحول إطلاقا عن البقاء نفسيا فى طاعة الله جل جلاله) . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون (وفلاحهم فى الدنيا وانتصارهم فيها على شهواتهم وأهوائهم ، وعلى أعدائهم بسبب ما لهم من صفات تعبر عن إيمانهم . . ليس هو كل جزائهم ، بل فى الحياه الآخرة يؤول أيضا : أمر الجنة إليهم وحدهم ، وهم فيها خالدون ، لا يخرجون منها أبداً . بما حققوه من التزام الطريق السوى . وهو طريق الإيمان بالله) .

* * *

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وابتدأت سورة : المؤمنون ، الآن فى الرد على ادعاءات المكيين الماديين ، تلك الادعاءات التى تتعارض مع هداية الله فى رسالته .. فى أية رسالة أرسل بها رسول قبل محمد بن عبد الله عليه السلام . ومن الادعاءات الشائعة لدى الماديين فى كل زمن وعهد : إنكار البعث والحياة الآخرة ، وتأكيد الدنيا وحدها كحياة للإنسان . ومهدت السورة هنا للرد على إنكار البعث ، ولإثبات أنه واقع حتما . فتعرضت لتطور الإنسان فى خلقه ، مما يبرز من جانب : أمر الإبداع فى هذا الخلق . . ومن جانب آخر : مما يجعل البعث أمرا سهلا غير مشكل على الخالق جلت قدرته : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (أى خلقنا الإنسان الأول وهو آدم من خلاصة الطين . **« الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين »** (١) ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين (أى وبعد المرحلة الأولى من خلق الإنسان من طين . . كانت المرحلة التالية فى خلقه : أن نشأ من نطفة أمشاج من الذكورة والأنوثة تستقر فى رحم الأنثى إلى حين) : **« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج (٢) »** ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً (وبتحول النطفة فى مراحلها المتعاقبة إلى عظام ولحم . . أصبح الإنسان حيواناً ، بعد أن كان جماداً من تراب)

---

(١) السجدة : ٧ .

(٢) الإنسان : ٢ .

ثم أنشأناه خلقا آخر (وذلك بأن سواه الله ونفخ فيه من روحه ، وأعده بالسمع ، والبصر ، والفؤاد: « **ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون** (١) » . وانتقل الانسان بهذا الاعداد الجديد من مرحلة الحيوان بالغريزة . . إلى الكائن الناطق والمدرك . . وهى مرحلة الانسانية) فتبارك الله أحسن الخالقين (أى تعالى أمره فى خلقه وعظمته . فلقد خلق الانسان فى أحسن تقويم : نقله من مستوى الجماد . . إلى مستوى الحيوان . . ثم من مستوى الحيوان . . إلى مستوى العاقل المفكر : وبذلك ليس هناك أحسن منه فى الخلق بل هو الكامل فيما يخلق وينشىء) . ثم إنكم بعد ذلك لميتون (أى ثم إنكم تموتون بعد إتمام الخلق والحياة إلى أجل مسمى « **هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون** (٢) ») . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون (وبعد الموت يكون البعث يوم القيامة ، وهو يوم الجزاء . وهكذا : خلق الانسان ، ينبىء عن عظمة الخالق .. ثم حياة له محدودة يتطور فيها من طفولة .. إلى رشد ونمو متكامل. إلى شيخوخة فى العادة . . ثم موت وفناء له لفترة معلومة عند الله : « **هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون**(٣) ثم يبعث يوم الجزاء . والبعث يدخل فى نطاق قدرته بالأولى .. « **أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة ، فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين . . الذكر ، والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** (٤) ») .

---

(١) السجدة : ٩ .

(٢) غافر : ٦٧.

(٣) الأنعام : ٢ .

(٤) القيامة : ٤٠ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

ولم ينس الله – جلت قدرته – الانسان عندما خلقه ، ولم يغفل شأنه ومعيشته ، بل أعدله البيئة التى يعيش فيها : ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق (أى سبع سموات ، بعضها فوق بعض ، لتحمى الانسان ، ولتعينه على الحياة الأرضية ، بما لها من نظام محكم يجعلها تتفاعل لمصلحة الانسان :

إن فى إرسال الأشعة والضوء . .

وإن فى مد الظل ، أو تخييم الظلام . .

وإن فى تبخير مياه البحار وتكوين السحب . .

وإن فى إنزال الماء عذبا سائغا للرى والسقى . .

وإن فى التعريف بمعالم الطريق . .

وإن فى تخصيب الأرض للزراعة ، أو فى تيسير مواد العمارة والبناء للسكنى . .) وما كنا عن الخلق غافلين (أى وخلقنا سبع سموات بعضها فوق بعض : إنما بسبب : أننا لم نغفل الانسان فى معيشته بعد أن خلقناه) .

وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ، وإنا على ذهاب به لقادرون

(ولإعداد الحياة الأرضية لمعيشة الانسان : يذكر الله ثلاثة أنواع من النعم ، تكون جميعها الاقتصاد الأولى والضرورى لأى مجتمع إنسانى : يذكر الماء . . والزراعة . . وثروة الحيوان .

وفى ذكره للماء يذكر النوع الصالح منه للسقى والرى . وهو ماء الأمطار ، الذى تتخلف عنه : الآبار . . والقنوات . . والأنهار . . والبحيرات العذبة . وفى حديث الآية عن إنزال الماء من السماء — أى من المرتفع — بقدر .. يعنى : أن الكمية التى تنزل منه يسلم معها الضرر على الانسان ، فى الوقت الذى تصل منفعته وتفى بالحاجة له فى حياته . وإسكان ماء المطر فى الأرض معناه : استقراره فيها ، وتكون الآبار والقنوات ، والأنهار والبحيرات منه ، لاستدامة المنفعة فى غير وقت الأمطار . وبذلك يمكن الإنسان أن يطيل فترات الزراعة .

والامتنان باستقرار ماء المطر فى الأرض وتخلف مصادر المياه العذبة فيها . . لأن الله قادر على إذهابه . فبقاؤه فى الأرض يعتبر قطعا منة منه) . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون (أى وبمياه هذه الأمطار التى استقرت وسكنت فى الأرض ، وخلفت الآبار والقنوات ، والأنهار فيها ، يعين الله على انشاء الحدائق ومافيها من النخيل ، والأعناب ، وأصناف الفاكهة العديدة الأخرى ، يستمتع الانسان بالأكل منها ، كما يتفيأ ظلالها) . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن ، وصبغ للآكلين (وبجانب أشجار الفاكهة المختلفة ، ينبت الله بالماء كذلك : بعض الأشجار الزيتية التى يحتاجها الانسان فى أدمه ، كتلك الشجرة — وربما تكون شجرة الزيتون — التى تخرج فى جبل سيناء وينتفع بزيتها الانسان فى الأكل فيغمس فيه لقيمات الخبز قبل تناولها).

وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون (ثم مع أشجار الفاكهة والأشجار الزيتية فى معيشة الإنسان توجد الأنعام أيضا . فلها أهمية خاصة فى حياة الإنسان ، يشرب مما فى بطونها من ألبان متنوعة فى مستويات غذائها ، ويأكل من لحومها ، وهى ذات درجات مختلفة كذلك فى القيمة الغذائية .

وفيما عدا ذلك فللأنعام فوائد أخرى « **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين** (١)) . وعليها وعلى الفلك تحملون (وبالاضافة الى تلك الفوائد التى للأنعام فى معيشة الانسان وحياته . . فإنها تستخدم للحمل فى البر ، كما تستخدم السفن فى التنقل فى البحر ، والطائرات فى الجو ، وهكذا : لم يكن الله سبحانه بغافل شأن الانسان فى معيشته عندما خلقه . فقد هيأ له من أسباب المعيشة ماهو حاضر فى بيئته وتحت نظره . وهى أسباب عديدة : إن فيما يخرجه من أشجار الثمار المختلفة . . وإن فيما ييسره له من أمر الأنعام فى فوائدها العديدة . وهذه نعمة أخرى على الانسان من الله بجانب نعمة خلقه . واذا كانت نعمة خلقه توحى بيسر بعثه بعد موته .. فإن نعمة معيشته فى بيئته الحاضرة تدفع إلى الإيمان به وحده سبحانه وتعالى شأنه) » .

★★★

---

(١) النحل : ٨٠ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

وتبتدىء السورة الآن تنقل من التاريخ ، من نوح .. إلى عيسى بن مريم عليه السلام : ادعاءات الماديين فى عهود الرسل السابقين على رسول الله محمد عليه صلوات الله ، بشأن الرسالة فى ذاتها ، وبشأن الرسل الذين حملوها . وهى ادعاءات — أو اتهامات — متجانسة : فينكرون أن يكون الرسول من البشر ، ويريدونه : أن يكون من الملائكة .. وينكرون البعث واليوم الآخر .. كما يجعلون الملائكة بنات لله ، سبحانه .. فى جملة ادعاءات واتهامات أخرى . ويصفون الرسول بالجنون مرة ، وبأنه ساحر مرة أخرى ، وبالاختلاق والكذب .. إلى غير ذلك من الصفات التى تعبر عن استنكارهم لما دعاهم إليه ، من عبادة الله وحده .. والرجوع إلى طريق الهداية .. والتمسك بالروحية الانسانية . فتتحدث السورة عن نوح فى قول

الله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فقال : ياقوم اعبدوا الله ، مالكم من إله غيره (أى دعاهم الى التوحيد فى الألوهية وعبادة الله وحده . إذ ليس هناك فى الوجود إله سواه وبدعوته إياهم الى التوحيد فى الألوهية يطلب إليهم ضمنا : الابتعاد عن الوثنية المادية ، والشرك فى العبادة . لأنها مصدر الشرور والفساد فى المجتمع البشرى) أفلاتتقون ؟ (أى ألم يئن الوقت بعد : لأن تتقوا ما أنتم فيه ، وتتجنبوا اتجاه المادية فى العبادة . . وفى السلوك ؟ . إنه قد آن الأوان حقا لأن تعودوا إلى الله وحده . فقد أتيتم من الجرائم وباشرتم من العبث والفساد ما يدعو الله لأن يحل بكم عذابه ، ويغير مجتمعكم بمجتمع أهدى منكم) . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم (أى ولكن كانت استجابة أصحاب الشأن والزعماء فى قومه — وهم الذين يعارضون الدعوة والرسالة عادة — أن كذبوا به وبرسالته . بدعوى أنه واحد منهم — وليس من جنس آخر ، وهو جنس الملائكة — يريد بدعوته إياهم أن يكون متميزاً عليهم وينزع من أيديهم : الزعامة لنفسه . ومعارضتهم لدعوته ، لذلك ، لم تكن معارضة لموضوع الدعوة . وانما خشية على جاه الزعامة الذى يمارسونه فى المجتمع ولهم بسببه مصالح مادية معينة . والدعوة الجديدة التى يدعو إليها نوح رسول الله . . من شأن رواجها أن يقوض الأساس لزعامتهم ، وهو الأساس المادى فى التوجيه) ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين (ولو أنه كانت هناك رسالة حقا من الله إلينا — هكذا يسير منطق الزعماء — لأرسل بها الملائكة ولم يرسل بها أحداً من الناس . ولم نسمع من قبل ، منذ عهد آبائنا الأباعد أن أرسل

أحد من الناس برسالة لله ، فى أى مجتمع بشرى . وإذن دعوى نوح بالرسالة هى دعوى كاذبة . ويستهدف بدعواه : أن يخلق له فى المجتمع جوا للزعامة . وبذلك يتميز ويتفضل علينا . وهكذا : زعماء أى مجتمع هم الذين يسبقون غيرهم فيه : إلى معارضة أية دعوة جديدة لتوجيه جديد فى المجتمع من شأنه أن يعرض التوجيه القائم فيه إلى خطر الانهيار والزوال . ومعارضتهم تقوم على أسباب شخصية ، وليست موضوعية) . إن هو إلا رجل به جنة (ثم بالإضافة إلى معارضة زعماء قوم نوح لرسالته بدعوى : أنه بشر يريد بما يقوله : أن يتميز عليهم بنزع الزعامة من أيديهم .. يدعون : وصفه بالجنون . إذ كيف يجرؤ — فى نظرهم — على نقد أوضاع مجتمعهم فى مواجهتهم . ويدعو إلى تغييرها تغييراً جذريا .

واتهام أصحاب القيادات فى المجتمعات المعاصرة : معارضيهم ممن يوجهون النقد لأوضاع المجتمع فى عهودهم ، بالجنون .. ودفعهم إلى مستشفى المجانين ليمكثوا فيه إلى ما شاء الله .. ليس اتهاما جديداً على البشرية . وإنما هو اتهام يمارسه الماديون الملحدون إذا ملكوا قيادة المجتمع ، وتمكنوا من الزعامة فيه يوما ما ، ضد أعدائهم ، وعلى الأخص ضد المفكرين وأصحاب الرأى فيهم ، وضد أرباب الدعوات الإصلاحية) فتربصوا به حتى حين (ولذا يجب التربص به ، وترقب أموره عن كثب لفترة ما ، حتى يفتر نشاطه ويضعف أو يرحل به بعيداً عن المجتمع إلى غير رجعة : يجب التضييق عليه ومحاصرته .. يجب ألا يمكن فى حركته .. يجب القيام بعمل مناوىء للصد عن سبيل الله الذى هو دعوته .. تجب التوعية لخطر دعوته ..

يجب تشويهها بأنها لهدف شخصى :: وغير ذلك مما يضعف فاعليتها . وهكذا تشكيك فى أمر الرسالة، بدعوى : أنها للملائكة ، وليس البشر أهلا لها، أى بدعوى عدم صلاحيته وعدم أهليته لنقد الأوضاع فى المجتمع ، وعدم ارتفاعه إلى هذا المستوى .. واتهام بالجنون لمن يباشر شأن رسالة تطلب تغيير الأوضاع فى المجتمع ، وبالأخص : تغيير الأساس العقيدى فى توجيه أفراده وتربص به وتضييق على نشاطه إلى أن يسكت أو يهاجر .. كل هذه الخطوات الثلاث : تشكل الإجراءات التى يتخذها الزعماء الماديون فى أى مجتمع بشرى يتولون قيادته : منذ نوح ، ضد من يرشدهم إلى الطريق السوى ، وإلى هداية الله .. يرشدهم إلى الابتعاد عن الانحراف ، وعدم السقوط فى هاوية الفساد الذى تدفع إليه المادية .

وهكذا : رمى نوح بعدم الصلاحية لنقد أوضاع المجتمع الذى عاش فيه .. ورمى بالجنون لأنه جرؤ على النقد لهذه الأوضاع وضيق عليه فى رسالته ، حتى ضاق صدره ، واستنجد بربه فأذن له بالرحيل عن قومه). قال : رب انصرنى بما كذبون (أى ولم يسع نوح — بعد هذا التضييق عليه فى شأن الرسالة — سوى أن يدعو ربه بأن ينصره عليهم ، بعد أن كذبوا به وبرسالته ، وبعد أن استهجنوا دعوته « **قالوا : لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** (١) » فأوحينا إليه : أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (فلم يكن من الله جل جلاله إلا أن استجاب لدعوته، وأمره بصنع السفينة التى سيبحر عليها هو وما يشاؤه الله معه ، إنجاء له من قومه ..

---

(١) الشعراء : ١١٦ .

وبأن يصنعها بإرشاده ، وتحت رقابته فى التنفيذ) فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا : إنهم مغرقون (أى فإذا حل الموعد المحدد للرحيل — وأمارته أن يندفع الماء من الأرض بغزارة بسبب التشققات الأرضية الناجمة عن التفاعل الكيمائى بعد رسوب ماء المطر إلى قاع الأرض ، وبذلك يكثر ماء الفيضان ، ويمكن للسفينة آنئذ أن تسير فى يسر — فإذا حل هذا الموعد : فاجمع من كل شىء فى البيئة التى تعيش فيها : زوجين واحمل ما تجمعه فى السفينة مع أهلك ، عدا من سبق أمر الله فى شأنهم بسبب كفرهم ، وهما : امرأته « **ضرب الله مثلا للذين كفروا : امرأة نوح** »(١) وولده : « **ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل . يا بنى إركب معنا . ولا تكن مع الكافرين** »(٢) ولا تراجعنى فى شأن امرأتك وولدك وشأن الآخرين ممن كفروا معهما برسالتك ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر . وبسبب ظلمهم لأنفسهم سيكونون من المغرقين فى مياه الفيضان جزاء لهم من عند الله . بعد أن تنجو بنفسك ومن معك) . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين (ثم إذا تمكنت أنت ومن معك فى السفينة ، واستقر بكم المقام فيها.. فاتجه لله سبحانه عندئذ بالثناء والحمد على نجاتك من قومك . فإنهم قوم ظالمون ومعتدون) . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (كما تتجه إليه بالدعاء : فى أن يكون المقام الجديد لكم بعد أن تنزلوا من

---

(١) التحريم : ١٠ .

(٢) هود : ٤٢ .

السفينة .. خيراً وبركة عليكم . وبذلك ينشأ جيل جديد ومجتمع جديد منكم يؤمن بالله وحده .. وقد هبط نوح ومن معه بسلام : « **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم** »(١) ، وقد هبط على مكان فى شمال العراق ، يلتقى مع جنوب تركيا الآن ويعرف بالجودى : «**وقيل يا أرض ابلعى ماءك . ويا سماء أقلعى وغيض الماء . وقضى الأمر . واستوت** (أى استقرت السفينة) **على الجودى . وقيل بعداً للقوم الظالمين** »(٢)) . إن فى ذلك لآيات ، وإن كنا لمبتلين (وما فى قصة نوح من اضطهاده من قومه ، ونجاته من ظلمهم بالطريقة التى نجا بها هو ومن آمن معه .. يعتبر من أمارات القدرة الإلهية التى يجب الاعتبار بها . فهى فى واقع أمرها يجب أن تذكر عباد الله فى كل جيل بالرجوع إلى الله وحده . لأن من آمن به وحده سلم .. ومن كفر به وعصاه ، لا مفر من جزائه وعقابه) » .

★★★

---

(١) هود : ٤٨ .

(٢) هود : ٤٤ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)

وهذا مجتمع مادى آخر ، بعد مجتمع نوح ، سلك مع رسوله نفس المسلك الذى سلكه قوم نوح معه ، بعد أن أعلنه الرسول بدعوة التوحيد فى الألوهية . والذى تصدى له فى المعارضة هم زعماء المجتمع كذلك ، وأقاموا معارضته على نفس السبب الذى أقام عليه زعماء مجتمع نوح معارضته . وهو أنه بشر : يأكل ويشرب كما يأكل الناس ويشربون . وهالهم من نقده لأوضاع مجتمعهم : أن طالبهم بالإيمان بالبعث واليوم الآخر ، كما صنع قوم نوح معه أيضا .

وهذا وذاك من الظواهر المشتركة بين المجتمعات المادية : على عهد نوح .. أو بعده . وكأن المجتمع المادى من خصائصه أينما وجد ، وفى أى زمان كان ويكون : أن يكفر بوحدة الألوهية .. وأن يتصدى لمعارضة الرسول الجديد

الذى يأتى لتغيير أوضاعه : بدعوى أنه بشر غير ذى أهلية للرسالة .. وأن تشتد معارضته إذا طلب منهم الإيمان بالبعث واليوم الآخر . . وأن يكون المتصدون للمعارضة هم : زعماء المجتمع وأصحاب السطوة والنفوذ فيه: « ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (أى بعد أن انتهى قوم نوح بغرقهم فى الفيضان أتينا بمجتمع جديد آخر) . فأرسلنا فيهم رسولا منهم: أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، (وحتى نفى بوعدنا : ألا نهلك مجتمعا إلا بعد إرسال رسول له يوضح هداية الله : « **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا ، يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** »(١) .. (وحتى نفى بهذا الوعد أرسلنا إلى هذا المجتمع الجديد رسولا واحداً من بينهم ، وليس غريبا عنهم فى نوعه ، وفى شخصه ، يدعوهم إلى التوحيد فى الألوهية) أفلا تتقون (وينذرهم بالكف عن الشرك ، والتخلص من اتجاه المادية فى عبثها وفسادها فى الاعتقاد .. والسلوك) . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ماهذا إلا بشر مثلكم (أى ولكن زعماء هذا المجتمع ، وهم زعماء التوجيه المادى فيه ، وأمارة وقوعهم تحت تأثير المادية ثلاثة مظاهر :

أولا — أنهم لا يؤمنون بالله ..

ثانيا — أنهم ينكرون البعث ..

ثالثا — أنهم مستغرقون فى المتع المادية فى الحياة ..

ولكن هؤلاء الزعماء واجهوا الرسول المرسل : بالتحدى ، وأعلنوا

---

(١) القصص: ٥٩ .

معارضته ، لأنه بشر . إذ ليس هناك من البشر من يسمو فوق مستواهم ويطلب إليهم تغيير أوضاع مجتمعهم ، وأسباب سيادتهم فيه .

ولو أن الذى يرسل إليهم بهذا التغيير كان من طبيعة أخرى ونوع آخر كأن يكون من الملائكة مثلا — إذ ليست هناك طبيعة أخرى عدا طبيعة الإنسان . اختبرت فى طاعتها لله ، سوى طبيعة الملائكة — لقبلت رسالته) يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون (أما وإنه بشر ، وبشر عادى لا يختلف عنا فى الأكل والشرب ، أى فيما نأكله ونشربه ، وبذا لا يتميز عنا بشيء .. فنرفض رسالته ونتحداه . لأنه يريد برسالته أن يحقق هدفا شخصيا له فى المجتمع . وهو هدف الزعامة فينا ، بدلا منا : « يريد أن يتفضل عليكم . ولئن أطعتم بشرا مثلكم ، إنكم إذاً لخاسرون (ولذا فأنتم خاسرون زعامتكم فى المجتمع — وخاسرون كثيراً من الجاه ، والمال والقوة بعدها — لحظة أن تطيعوه . لأن طاعته هى التنازل عن الأوضاع القائمة فى المجتمع المادى ، وقبول أوضاع جديدة تسوى بيننا وبين الأراذل أو المستضعفين فينا . وعندئذ نكون قد أضعنا أنفسنا) . أيعدكم أنكم : إذا متم وكنتم ترابا وعظاما ، أنكم مخرجون ؟ . هيهات هيهات لما توعدون (وهذا الرسول مما يطلبه منكم أن تؤمنوا به هو : أنكم تبعثون أحياء بعد الموت . وهذا منتهى ما يسخر به من عقولكم . لأنه لا سبيل إطلاقا لتحقيق ما يطلبه ، ويعد بوقوعه . وإنكار البعث حجر أساسى فى زاوية الاعتقاد المادى لأن الاستغراق فى متع الحيـــاة المادية وحدها ، والنظرة إلى الحياة الإنسانية على أنها حياة مادية فقط :

تبتدىء .. وتنتهى فى هذه الحياة وحدها – وهذا ما يأخذ به الاتجاه المادى – .. تؤسس فقط على إنكار الآخرة والبعث فيها . ولذا كانت إثارة زعماء المجتمع المادى هذه القضية ، فى وجه الرسول وإعلان ما جاء به فى شأنها وهو على النقيض من الاعتقاد الشائع .. يصعب أمر الدعوة لديه ، وقبولها عند المستضعفين فى المجتمع كذلك) . إن هي إلا حياتنا الدنيا : نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين (وعلى عكس ما يطلبه الرسول من الإيمان بالبعث ليست هناك إلا حياة واحدة .. هى الحياة الدنيوية وحدها . وفى هذه الحياة نموت ، ونحيا فقط : فى أجيالنا المتتابعة . ولكن ليست هناك حياة وبعث لمن مات ووضع فى قبره . إنما الحياة بعد موت الأفراد هى حياة الأمة فى أجيالها المتعاقبة ولذا : فالمجتمع باق بقاء أبدياً فى أجياله . جيلا بعد آخر ، وليس فى أشخاص أفراده . وحياة الأشخاص لا ترد ثانية بعد موتها .

والبعث هو أن تعود الأرواح إلى أشخاص الموتى فى الوقت الذى يأذن الله فيه) . إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ، وما نحن له بمؤمنين (ومن هنا : هذا الرسول فيما ينادى به من : البعث ، وغيره من القضايا التى تخالف الاعتقاد فى المجتمع .. غير صادق ، ومختلق فيه كذباً على الله . ونتيجة اختلاقه الكذب : أننا لا نؤمن به) . قال رب انصرنى بما كذبون (ولم يسع الرسول عندئذ – بعد أن انكشف تحدى زعماء المجتمع المادى له فى إصرار وعناد – إلا أن يتجه إلى الله ، ويطلب منه النصر ضد طغيان المادية فى أشخاص هؤلاء الزعماء) . قال : عما قليل ليصبحن نادمين (وعندئذ طمأنه الله على كفالته له ولدعوته ، ووعده : بأن هؤلاء الزعماء

والكافرين معهم من المستضعفين سيلقون جزاءهم قريبا . وساعة أن يجازيهم الله لن يكون لهم من موقف سوى : إعلانهم الندم على ما فعلوا وتحدوا به رسول الله فى دعوته) . فأخذتهم الصيحة بالحق ، فجعلناهم غثاء ، فبعداً للقوم الظالمين (أى وتناولهم العذاب فى غير ظلم من الله . بل استحقوه بموقفهم الخاص من رسالة الله لهم . وبذلك أصبحوا لا وزن لهم فى الوجود . بل شأنهم كشأن الغثاء الذى تعبث به الأمواج . وعلى هذا النحو انتهى مجتمع القوم الظالمين : لأنفسهم ولمن عداهم فى مجتمعهم : بكفرهم .. وبصدهم عن سبيل الله . وهكذا أيضا : يقوم المجتمع المادى .. ويطغى .. ثم ينتهى أمره إلى فناء) .

* * *

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

وهذه مجتمعات أخرى تتوالى فى وقتها المناسب ولا تتأخر عنه . وتأتيها رسل من بين أفرادها ، ثم يكذب زعماؤها بهؤلاء الرسل . وعند ما يكذب مجتمع منها رسوله يأخذه ، الله بعذابه ، ويصبح حديثا للناس بعد أن كان أمراً واقعا . وهى كلها مجتمعات مادية تشرك بالله ولا تؤمن باليوم الآخر .. وتثير نفس القضايا والادعاءات ، والاتهامات التى من شأن أى مجتمع مادى أن يثيرها فى وجه الرسول المرسل : « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين (أى وعلى أثر المجتمع المادى الذى أصبح غثاء بعد أخذه بعذاب الله .. أتى المولى سبحانه بمجتمعات أخرى عديدة) . ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون (وكل مجتمع يأتى فى وقته المناسب لا يسبقه ولا يتأخر عنه) . ثم أرسلنا رسلنا تترى (وتوالت الرسل تبعا لتوالى المجتمعات تحقيقا ، لوعد الله : بألا يأخذ مجتمعا إلا بعد أن يأتى إليه رسول منهم يحذرهم وينذرهم بعقاب الله إن هم كذبوا) كل ما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث (لكن ما إن يأت إلى المجتمع رسول من قبل الله إلا كذبوه .. وتوالى التكذيب من مجتمع .. إلى مجتمع . وكانت النتيجة أن أصبحت هذه المجتمعات أحاديث وعبراً للناس بسبب إفنائها ، عقوبة لها من الله) فبعداً لقوم لا يؤمنون (وإفناؤها هو أمر تستحقه ، لأنها لا تؤمن بالله واليوم الآخر . . أى لأنها تقع تحت تأثير المادية وانحرافاتها) .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

ووصل الأمر بالرسالة الإلهية وبالرسل من قبل الله فى تاريخ المجتمعات المادية .. إلى موسى وهارون ، ومجتمع فرعون من جانب ، ومجتمع بنى إسرائيل من جانب آخر .. ثم إلى عيسى ، ومجتمع بنى إسرائيل مرة أخرى : « ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه (وأرسلا إلى فرعون وملئه ليخلصا بنى إسرائيل من حكمه ، وليعودا بهم إلى مساكنهم السابقة قبل هجرتهم إلى مصر ، سعيا وراء لقمة العيش . **(اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى. اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال : لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ، ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا : أن العذاب على من كذب وتولى** (١) » فاستكبروا وكانوا قوماً عالين (ولكن

---

(١) طه : ٤١ — ٤٨ .

فرعون وزعماء المجتمع معه رفضوا رسالة موسى وهارون ، استكباراً منهم وعتواً فى الأرض . فهم كانوا طغاة متغطرسين) . فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا ، وقومهما لنا عابدون) وعللوا رفضهم لقبول رسالة موسى وهارون بنفس السبب الذى تدعيه المجتمعات المادية . وهو بشرية الرسول ، وعدم ارتفاعه إلى مستوى طبيعة الملائكة . وزادوا على هذا السبب العام للرفض : سبباً آخر خاصاً ، وهو أن قوم موسى وهارون الذين يسكنون مصر الآن ، مستذلون وعبيد لفرعون وزعماء قومه . فكيف يقبل فرعون والزعماء معه : رسالة فردين من قوم هم عبيد وأذلاء لهم ؟ . لأنهم لايتصورون أن يجرؤ فرد عادى على أن يناقشهم أوضاع مجتمعهم ، ويطلب إليهم تغيير هذه الأوضاع ، كلا .. أو بعضاً . فكيف يمكنهم أن يتصوروا الآن: أن يقوم بهذه المناقشة فرد أو فردان من مجموعة من الناس ، هم فى رقهم واستعبادهم ؟) . فكذبوهما فكانوا من المهلكين (ولم يسع فرعون وملأه أمام هذا التصور إلا أن يكذبوا موسى وهارون . ولم تكن نتيجة التكذيب إلا هلاكهم وغرقهم بالبحر • بعد أن نجا موسى وهارون ومن معهما من بنى إسرائيل فى طريق عودتهم : **(ولقد أوحينا إلى موسى : أن أسر بعبادى ليلاً فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى**(١) » . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون (وأرسل موسى بالتوراة إلى قومه : بنى إسرائيل لهدايتهم ودعوتهم إلى الإيمان

---

(١) طه : ٧٧ — ٧٩ .

بالله وحده : « « **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شىء علماً** » (١). وبعد أن نجاهم الله من متابعة فرعون وأغرق فرعون وجنوده فى البحر..ضلوا وعادوا إلى الوثنية المادية: «**وما أعجلك عن قومك ياموسى !. قال : هم أولاء على أثرى ، وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى** » (١) . وجعلنا ابن مريم • وأمه آية • وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (وابن مريم هو عيسى عليه السلام . هو وأمه آية من آيات الله • لأن الله جاء به إلى الحياة الدنيا من غير أب • وأرسله رسولا إلى بنى إسرائيل : « **إذ قالت الملائكة : يامريم ! إن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين .**

ويكلم الناس فى المهد وكهلا ، ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة ، والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل » (٢) . . وقد تقبل الله من قبل أمه قبولا حسناً عندما ولدتها أمها امرأة عمران : « **فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، قال : يامريم ! أنى لك هذا ، قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء ، بغير**

---

(١) طه : ٨٣ – ٨٥ .

(٢) آل عمران: ٤٥–٩٤.

حساب » (١) .. وعندما حملت به انتبذت به مكاناً مرتفعاً بعيداً عن الأهل، واستقرت عليه، وتوفر لها فيه ما يعينها على الحياة : « **فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا . فناداها** (أى جبريل) **من تحتها : ألا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا** (والسرى هو النهر الصغير) . **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا** » (٢) . ولكن — رغم تلك الأمارة الدالة على اصطفاء الله له، وأنه جاء برسالته إلى بنى إسرائيل مصدقا للتوراة فإنهم كفروا به، ولم يتبعه إلا قلة من الحواريين : (**ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** » (٣) . (وكانت نهاية المجتمع الذى أرسل له ما يصوره القرآن فى قول الله تعالى : « **ومكروا** (أى مكر زعماء بنى إسرائيل) **ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله ياعيسى ! إنى متوفيك ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل**

---

(١) آل عمران : ٣٧ .

(٢) مريم : ٢٢ — ٢٦ .

(٣) آل عمران : ٥٠ — ٥٢ .

الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحــكم بينــكم فيما كنتم فيه تختلفون • فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا والآخرة ، ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملو الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين » (١)•

وكما ذكر من قبل : سمات المجتمع المادى واحدة فى كل عصر . . وموقفه فى أى وقت من رسالة الروحية الإلهيةواحدة ..ومصيره فى التغيير كذلك : واحد لايختلف .

* * *

(١) آل عمران : ٥٤ — ٥٧ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

وبعد أن نقلت السورة صوراً تاريخية من المجتمعات المادية التى أشركت بالله ، وأنكرت البعث واليوم الآخر : من عهد نوح .. إلى عهد عيسى : اتجه القرآن بالخطاب إلى الرسل الذين أرسلوا إلى هذه المجتمعات . ليقرر ثلاثة أمور التزم بها هؤلاء الرسل ، وتعبر عن علاقة بعضهم ببعض :

الأمر الأول : أنهم أوصوا بأن يتجنبوا الخبائث ، فى معيشتهم ، ويأكلوا من الطيبات وحدها : « يا أيها الرسل ! كلوا من الطيبات » .. فلا يأكلون ما حرم الله أكله من : الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به .. ولا يأكلون من أموال الناس بالباطل . وقد التزموا جميعاً بما أوصاهم به الله : قبل تكليفهم بالرسالة ، وبعد التكليف بها على السواء .

الأمر الثانى : أن الله طلب إليهم العمل الصالح .. وهو العمل الذى يسير وفق خطوط الهداية الإلهية : « واعملوا صالحا » .. والرسل جميعاً يعلمون : أنه إذا طلب منهم التزام الحلال والطيبات فى معيشتهم ، والتزام العمل الصالح فى سلوكهم وفى علاقاتهم بغيرهم .. فإن الله يعلم بما يعملون ، ولا تخفى عليه خافية فيه : « إنى بما تعملون عليم » .

الأمر الثالث : أن رسالتهم رسالة واحدة .. هى الدعوة إلى عبادة الله وحده .. وأن دينهم واحد . هو الإسلام .. وأنهم جميعاً مسلمون لله

وخاضعون فى طاعته إليه . فمجموعتهم مجموعة واحدة. يعبدون ربا واحداً . هو الله تعالى . وأن هذه أمتكم أمة واحدة (أى وأن هذه القصص التى للرسل عليهم السلام . تعبر عن أمة لهم ومجموعة من الروابط فيما بينهم . هى أمة واحدة ومجموعة من الروابط واحدة) وأنا ربكم فاتقون (وماتلتف جميعها حوله هو الاعتراف بربوبية الله سبحانه وتعالى وحده ، واتقاء ما يجنبهم الشرك به) .

ولكن مع كون الرسل جميعاً أصحاب رسالة واحدة .. ودين واحد .. وملتفين حول هدف واحد .. فإن الأمر بين أتباعهم لم يبق على الوحدة فيما بينهم . وإنما حولوا الرسالة الواحدة إلى جملة من الرسالات ..ومجموعة الروابط إلى شتات مفرق .. والدين الواحد إلى أديان مختلفة ومذاهب متضادة . ولذا أصبحوا أحزابا وشيعاً . وكل حزب متمسك بما اتجه به من دين الله إلى نفسه خاصة . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً (أى فتفرق الأمر بين أتباع الرسل إلى كتب ، بدل كتاب واحد) كل حزب بما لديهم فرحون (وبهذا التفرق أصبحوا أحزابا وطوائف .

كل فرح بما أخذه لنفسه من كتاب الله ..

وكل بعيد عن الآخر بما تأوله فى رسالة الرسول ..

وكل وقع فيما اتجه إليه من تأويل هذه الرسالة ، تحت عوامل أخرى ، من شأنها أن تلبس هداية الله بالباطل) .

والآن يواجه الرسول محمد عليه السلام وضعاً فى المجتمعات البشرية يتناقض مع الرسالة الإلهية التى أرسل بها الرسل السابقون . يواجه نفرة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ..وفرقة فى اتجاهاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ..

وباطلا يشوه وجه الإسلام الذى أوحى به من الله إليه ، وإلى الرسل جميعا قبله . . ومادية تنكر الله واليوم الآخر . وتقتلع بذلك جذور الروحية الإنسانية من حياة الإنسان .

وإذ يواجه الرسول عليه السلام هذه الوقائع فى حياة المجتمعات الإنسانية فإن رسالته تتمثل فى «التوحيد» من جديد : فى جمع البشرية على دين واحد، ومنهج سلوكى واحد ، وإله واحد ، ومعبود لاشريك له . . وفى مقاومة عوامل التفرقة فى هذه المجتمعات ، وهى العوامل التى دعت إلى الاختلاف فى تأويل الرسالة الإلهية ، وتوزيعها على كتب مختلفة لطوائف مفرقة . . وإلى الأخرى التى دعت إلى طمس أصول الرسالة نفسها. وهى اتجاهات المادية.

ولذا . كانت رسالة القرآن هى الكشف .

أولا : عن اتجاهات المادية وفسادها . ويتجلى هذا الهدف فى الوحى المكى فى القرآن .

وثانيا : عن تحريف أهل الكتاب . واختلافهم فى تأويل رسالة الرسول الذى جاء إليهم . ويتضح هذا الجانب فيما يخاطب به القرآن أهل الكتاب . أو فيما يحدث الله به عنهم : رسوله عليه السلام .

وثالثا : عن تحديد إيجابى لرسالة الله ، كما هى : على نحو ما جاء بها الرسل السابقون ، وعلى نحو ما أوحى به إليه فى بناء المجتمع الإسلامى ، وهو بالمدينة . إذ معالم الرسالة الإلهية واحدة . منذ أن أعلن الله بها بنى آدم لأول مرة فى قوله : « **يا بنى آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم**

آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (١).
وقد أعلنهم بها الله ، بعد أن عصى آدم وحواء ربهما ولم ينجحا فى اختيار الطاعة له ، بسبب أن العقل البشرى فيهما لم يتمكن من كبح جماح شهوتيهما . ولذا بدت حاجة البشر من أولادهما إلى رسالة من الله لتوضيح طريق الهداية وتأكيده .

فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

والآن يتجه القرآن فى السورة إلى مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يجب عليه : من معاملة الوثنيين الماديين بمكة ، بعد توضيح نعمة الله على الإنسان : فى تطوره فى خلقه ، وظروف معيشته فى الحياة ، وبعد ذكر المجتمعات المادية من نوح .. إلى عيسى بن مريم : وما انتهى إليه مصيرها من التحطيم أو الفناء بسبب تحديها لرسالة الله ، فيقول له : فذرهم فى غمرتهم حتى حين (أى اترك هؤلاء الماديين الوثنيين بمكة وشأنهم .. اتركهم فيما هم مغمورون فيه من لهو بالحياة .. وسخرية برسالتك .. وتحد لك وللقلة المؤمنة معك . وسترى بعد حين وبعد مضى بعض الوقت. ما يلحق بهم من عذاب الخوف والقلق . « أو الجوع والحرمان .. أو الهزيمة والضياع النهائى . وقد كانت هجرة الرسول عليه السلام ومن هاجر قبله ، أو معه ،

---

(١) الأعراف : ٣٥ – ٣٦.

أو بعده من المؤمنين : بداية لإلحاق العذاب بهم في صورة العديدة . فكان لقاء « بدر » مصدر خوف وقلق .. وقد كان الجوع والحرمان حتى أكلوا الميتة والجيف لفترة ليست قصيرة ، بسبب ما استجاب له الله سبحانه من دعاء الرسول عليه السلام ، عليهم .. وقد كانت الهزيمة الساحقة لهم ، وبها انتهى مجتمعهم ، يوم فتح مكة) . أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات ؟ (أى : هؤلاء قد يظنون أن النعم التى يعطيها الله إياهم : من مصادر القوة ، والملك .. من المال والبنين .. يعطيها إياهم لخيرهم وترفهم .. ويسارع بها إليهم من أجل سيادتهم وتمكنهم فى الدنيا .. وبذلك يعتقدون . أن لاضير عليهم فى تماديهم فى التحدى والمعارضة — واستمرارهم فى العبث والفساد . عن طريق مالديهم من قوة . ومال . ولكن ما قد يظنونه هذا . ليس بصحيح) بل لايشعرون (فهم لايحسون : أن تلك النعم التى بأيديهم هى للاختبار والامتحان . وعطاء الله للانسان لايرتبط بإيمانه . . أو بكفره . فهو يعطى كلا من المؤمن والكافر على السواء . لأن العطاء لايقصد منه الجزاء . ولكن يقصد به أولا وأخيراً الابتلاء : هل سيتمادى الكافر فى كفره ؟ وهل سيسير المؤمن بعطائه وفق هداية الله ، فلا يستخدم القوة إلا للمصلحة ولخير الناس والأمة . ولا يحرم من ماله صاحب حق فيه ؟ . « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً** (أى على أحد) . **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** (أى فى الأموال والأولاد بدون تقييد

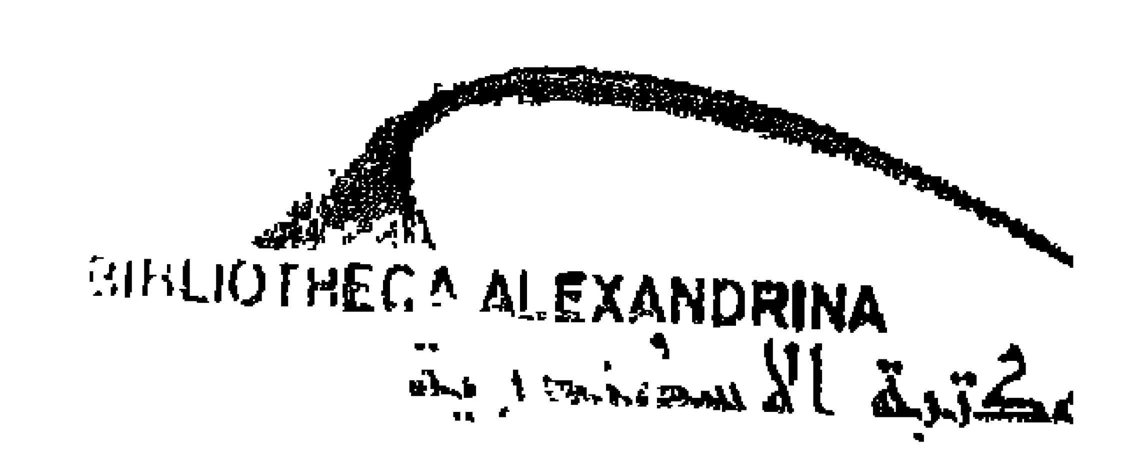
بإيمان أو بكفر) وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »(١).. ولذا : لاصلة بين النعم من مال وأولاد من جهة ، وبين رضاء الله أو عدم رضائه من جهة ثانية ، على من أنعم عليهم أو على من حرمهم منها) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

وهناك وضع آخر للمؤمنين ، على النقيض من وضع هؤلاء الماديين المكيين . فهؤلاء إن اهتموا بمصادر القوة المادية من : مال ، وبنين ، واعتمدوا عليها فى السخرية والتحدى للرسالة . . فأولئكم لايرقبون شيئا فى حياتهم إلا الله سبحانه : يحذرون ويحتاطون فى تصرفاتهم ، خوفا منه .. ويؤمنون إيمانا كاملا بكتاب الله .. ويعبدونه وحده ، لاشريك له .. وفى عطائهم للآخرين يخافون ألا يكون عطاؤهم مقبولا عند الله يوم يعرضون عليه . وشأنهم فى الطاعة لله والعمل الصالح على العموم وفقا لهدايته. إنهم يسارعون فيها ، ومن السابقين لأدائها : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (أى حذرون فى التصرفات خوفا من الله) . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (أى والذين ممن يؤمنون بكتاب الله ، والتى تعبر عنه آياته) . والذين هم بربهم لايشركون (وكذلك الذين يعبدون الله وحده لاشريك له) . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : أنهم إلى ربهم راجعون (وأيضا هم الذين إذا ما أعطوا عطاء يخافون ألا يكون ذلك مقبولا عند

(١) الاسراء: ١٨ — ٢١.

الله يوم يرجعون إليه) . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون (هذا الفريق الذى وصف بهذه الصفات كلها : من الحذر والخشية من الله فى تصرفاته .. ومن الإيمان بكتابه . . ومن عبادته وحده . . ومن الرجاء فى حسن لقاء الله إن أعطى غيره .. هذا الفريق لايتباطأ فى طاعة الله ، وفى أداء العمل الصالح ، ويكون فى المقدمة فى إنجاز هذا ، وذاك . وهو بصفاته مباين لصفات الماديين الذين يحرصون على الجاه والقوة ، ويعتمدون على عصبية المؤيدين ، وقوة المال فى تطويع الحياة لهم ، غير عابثين بما يأتى به هذا التطويع من أضرار لغيرهم . وإذا ذكروا بالطريق المستقيم فى الترابط والمعاملة سخروا منه وممن يدعو إليه) .



وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ عَنِ الصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

ولا يطلب من هذا الفريق الذى لا يتباطأ فى طاعة الله :فى إيمانه ، وفى أدائه للعمل الصالح .. سوى ما تستطيعه طاقته الذاتية : ولا نكلف نفسا الا وسعها (أى لا يلزم الله أى إنسان فى أداء طاعته ومباشرته للسير وفقا للطريق السوى : الا بقدر ما تسعه نفسه وتستوعبه طاقته) ولدينا كتاب ينطق بالحق (أى ولاطمئنان كل نفس بما عملت ، وأنه لا يضيع شىء عليها من عملها .. فإن الله يسجل ما يعمله كل فرد فى سجل خاص ، لا يسقط منه شىء إطلاقا . ولذا فهو يمثل الحق والصدق . وهذا تعبير عن استيعاب علم الله جل شأنه لأعمال البشر جميعا) وهم لا يظلمون (وعند الجزاء لا تظلم أى نفس ، طالما : سجل أعمالها ينطق بالحق والصدق) .

وتعود السورة مرة أخرى عن : الوثنيين الماديين بمكة ، فتذكر : أن نفوسهم منقبضة من إيمان هذا الفريق الذى أسلم منهم : ويتبع الآن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل قلوبهم فى غمرة من هذا (أى ولم يكتف هؤلاء الماديون المشركون بتحدى القرآن ومعارضة الرسول عليه السلام .. لم يكتفوا بموقفهم هذا ، بل تضيق نفوسهم وتتأزم . لأن فريقا قليلا منهم يؤمن بكتاب الله ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ويخشى الله فى تصرفاته ، ويعطى صاحب الحاجة مما أعطاه الله) ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون (وفوق ضيق نفوسهم بهذا الفريق.. فإنهم يضيفون إليه : مباشرتهم أعمالا لا تصدر منهم ضد هذا الفريق : « **إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون** »(١) . فموقفهم هو التحدى والمعارضة .. ونفوسهم حاقدة .. وأعمالهم تتسم بالإيذاء النفسى على الأقل للمؤمنين) حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون (ومن أجل ذلك سيجزون بالعذاب على خصومتهم للمؤمنين يوم الجزاء . وسترتفع بالشكوى أصوات الزعماء فيهم – وهم أصحاب الترف والسطوة – عندما نجازيهم . لأنهم لم يتعودوا فى حياتهم الدنيوية إلا رخاء العيش ويسر الحياة) . لا تجأروا اليوم ، إنكم منا لا تنصرون (وسيرد على شكواهم بالرفض ، وتأكيد : أنهم لا يلقون من الله نصراً أبداً) . قد كانت آياتى تتلى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تنكصون (لأن القرآن كان يتلى عليهم – وهو طريق الهداية ، وسبيل نظر الله للمؤمنين به – ولم يكن موقفهم عندئذ إلا أن يدبروا له ظهورهم وينصرفوا عنه) . مستكبرين به سامراً تهجرون

---

(١) المؤمنون : ١٠٩ – ١١٠ .

(ولم ينصرفوا عنه فحسب ويتركوه وشأنه .وإنما كانوا متعالين متغطرسين في انصرافهم ، كما كانوا يتندرون به ويسخرون منه في سموهم وحديثهم بالليل : في فحش من القول ، وبذاءة في التعبير . والمقصود من التعبير في هاتين الآيتين ، هو : توضيح : أن موقف هؤلاء الوثنيين الماديين من القرآن الكريم كان موقف المستهجن في تحديه ، وموقف المنكر الغليظ في إنكاره). أفلم يدبروا القول (فلم يكن موقفهم من القرآن موقفا موضوعيا : فيتدبرون ويعون ما فيه أولا ، قبل رفضه أو قبوله . وإنما كان موقفهم منه قائما على التحزب وتبييت الرأى مقدما ، وهو الكفر به . لأن المادية التي يقعون تحت تأثيرها تعمى قلوبهم ، وتسيء إلى منطقهم . فطالما لم يأت القرآن مؤيداً لاعتقادهم ، وبالتالى مؤيداً لزعامتهم .. فلا تقبله نفوسهم ، ولا يستسيغه منطقهم . كمنطق الأطفال : يرفضون ما لا يوافق مطلوبهم ،وإن كان أجود في النوع ، وأدخل في الصلاحية) أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين(وماجاء من رسالة إلى الرسول عليه السلام هو بعينه ما جاء إلى آبائهم الأولين على عهد إبراهيم وإسماعيل . فقد جاء إبراهيم — ومن بعده اسماعيل — بالدعوة إلى وحدة الألوهية ، وطرح الشرك بالله جانبا : « **وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا ، وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون** » (١) . وإذن ما يأتى الآن في حاضر هؤلاء الماديين المكيين على عهد الرسول محمد عليه السلام : ليس بغريب عما جاء لآبائهم الأقدمين على عهد إبراهيم وإسماعيل ، اللذين أقاما الكعبة بمكة بيتا لله يعبد

(١) العنكبوت : ١٦ — ١٧ .

فيه وحده ، دون شريك له . ولكن شهواتهم وأهواؤهم التى تحول بينهم وبين الإيمان برسالة المصطفى صلوات الله عليه) . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (وكما لم يكن سبب رفض هؤلاء الماديين بمكة للقرآن هو : دراستهم الموضوعية له .. ولا غرابته ومخالفته لما جاء من رسالة من قبل على عهد إبراهيم وإسماعيل فى هذه البيئه المكية .. كذلك : ليس سببه : أن هؤلاء الماديين لا يعرفون الرسول . فهم يعرفونه جيداً وأنه واحد من بنى هاشم فى قريش التى لها الزعامة بمكة ،عن طريق خدمة الأصنام حول الكعبة) أم يقولون : به جنة ، بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون (وليس سببه أيضا : تقولهم عليه : إنه مجنون . لأنه جاء بالقرآن ، وهو الحق ، والمجنون لا يستقيم له تفكير ، فضلا عن أن يلتزم الحق والصدق فيما يقول. ولأنه جاء بالحق كان وصفهم له بالجنون . إذ أكثرهم يكرهون الحق. وهم الزعماء ومن يتبعونهم فما جاء به القرآن لا يساعد على بقاء زعامتهم وسيادة نفوذهم) . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات ، والأرض ، ومن فيهن (والحق الذى جاء به القرآن هو ما يحدد الصراط السوى : فى السلوك والتفكير .. والاعتقاد . ولو كان الحق — كما يرجون — هو ما يساوق هواهم فى النفع لهم ، عن طريق الإبقاء على زعامتهم الدينية فى قومهم . لفسدت السموات ، والأرض ، ومن فيهن . لأن اتباع الهوى فى السلوك والمعاملة هو اتباع لخطوات الشيطان . « **ومن يتبع خطوات الشيطان . فانه يأمر بالفحشاء والمنكر(١)** ») بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون (ولذا لم يكن الحق الذى جاء به الرسول : هو ما يوافق هواهم . بل كان هو القرآن والذكر ، الذى أعرضو عنه ، لأمر يخصهم هم) أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير ، وهو خير الرازقين (كذلك ليس من سبب

---

(١) النور — ٢١ .

رفضهم للقرآن : أن الرسول عليه السلام فى دعوته إليه يأخذ أجرا على تعليمهم لمبادئه وإرشادهم إلى نصحه : فى الحلال ، والحرام . فهو لا يأخذ أجرا من أحد . ورزقه مكفول له من الله تعالى . وهو خير من يرزق وخير من يؤجر). وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم (وكل ما هناك من سبب : فى غضبهم.. ومعارضتهم .. وتحديهم : أنك تدعوهم إلى الطريق السوى فى الاعتقاد، وفى التفكير ، وفى المعاملة . وليس السبب إذن : فيما عدا ذلك مما يقال) . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون (ودعوتك إياهم إلى الطريق السوى لا تتفق واتجاههم فى الحياة . فهم ماديون لا يومنؤن بالآخرة ، وإنما يؤمنون بالدنيا وحدها . والماديون يتنكبون السبيل القويم فى الحياة ويحيدون عنه إلى السبل الملتوية .. إلى السبل اللا أخلاقية .. إلى سبل الفساد والإجرام .

وهكذا : المادية فى كل وقت عدو للطريق السوى فى السلوك والمعاملة.

ودين الله ، ومادية الملحدين لا يلتقيان أبدا .

والخداع هو أن تهادن المادية الإلحادية دين الله . والعبث بدين الله هو أن يدعى : أنه يساند المادية فى أية صورة لها ، أو أن يلائم بين مبادئه وزيف الإلحاد المادى فى دعواه لإصلاح البشرية .لأن معول الفساد لا يكون أبدا مصدرا لعلاقات إنسانية سليمة) .

* وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

وهؤلاء الماديون لا ينقلهم من وقوعهم تحت التأثر بالاتجاه المادى : تغير ما هم فيه من وضع . فلو كانوا فى أزمة وشدة، ثم يسر الله لهم الأمر : فكشف عنهم ما هم فيه ، وحول أزمتهم إلى فرج ، وشدتهم إلى رخاء . .

لزادوا طغيانا وعنجهية ، وتصلبوا فى إصرارهم على الكفر ، وعلى العناد والتحدى : « ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون (أى لو شملهم الله برحمته ، وأعفاهم مما هم فيه من ضر وأذى : بسبب الجوع ، والهزال ، والقحط ، فعوضهم من ماء المطر ما أحيا زرعهم وأنعامهم ، وأغنى حياتهم .. لتورطوا أكثر فى الكفر والتحدى ، دون أن يزوا عاقبة أمرهم ، أو يفكروا فى مصيرهم). ولقد أخذناهم بالعذاب ، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون (ولو كانوا فى رخاء وأدركتهم شدة من الله لما انتقلوا أيضا من الكفر إلى الإيمان به ، وما أسلموا إليه وجوههم ، ولظل وضعهم على التحدى والعناد ، وهو : وضعهم قبل شدتهم وأزمتهم). حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ، إذا هم فيه مبلسون (ومهما بلغت الأزمة من قسوتها ، ومهما بلغت حيرتهم من العمق والشمول بسبب ما أصيبوا به .. فإنهم باقون على ماهم فيه ، من إنكار لله واليوم الآخر . لأن الاتجاه المادى بالنسبة للماديين هو : ظاهرة من ظواهر أنانيتهم ؛ والأنانية هى : حب الذات وحدها . والطفل — وطفولته تمثل الأنانية مجسدة — لا يغير البكاء مسلكه الأنانى ، ويزيد فرحه : فيه . أنه يخضع فيه لغريزة حب البقاء وحدها . وهو .. وهى : سواء) .

فى هذه الآية يفصح القرآن الكريم فى نعمه الله على الإنسان : فى خلقه ونشأته عما عبر به من قبل فى أول هذه السورة فى قول الله تعالى . « ثم أنشأناه خلقا آخر » فتذكر أن هذا التغيير الذى وقع فى نشأته . يرجع إلى تزويده بالسمع ، والبصر ، والفؤاد ، أى بالعقل ، والإيمان .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولكن مع ذلك ليس للعقل لديه مكان فى التصرف . فقد زود الله الإنسان بمداخل الإدراك والإيمان.. زوده: بحاستى : السمع والبصر، ثم بالقلب، كى يتمكن عن طريق العقل والإدراك فيه أن يحد من أثر الغرائز —وبالأخص غريزة حب البقاء — وأن يتحكم فى توجيهها ، بحيث يخفف من أنانيته . وإذا خفف من أنانيته أدرك وجود غيره معه فى الحياة، واعترف له بحقه فيها على قدم المساواة معه . « وهو الذى أنشأ لكم : السمع، والأبصار ، والأفئدة (أى أعدكم بمصادر الحس والإدراك والإيمان . وبذلك تميزتم عن الحيوان ، كما تميزتم عن الملائكة ، ولذا طلب الله للملائكة أن تسجد لآدم لما فيه من ميزة العقل ، التى جاء فيها قوله تعالى.«**يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا لباسا** (ويقصد به العقل) **يوارى سوآتكم وريشا** (أى وزينة كذلك ، مع كونه ستارا يستر نقص الإنسان) **ولباس التقوى ذلك خير** »(١)) قليلا ماتشكرون (ومع كون الإنسان قد تميز فى خلقه من الله : بالعقل، كى يستطيع أن يدرك الصواب من الخطأ .. فإنه بقى فى ميله الحيوانى ووقوعه تحت تأثير غرائزه التى هى مصدر شهواته وأهوائه، وتمثل أنانيته .. بعيدا عما استهدفه الله فيه .. بعيدا عن الهداية التى توصله إلى الإيمان بالله . وظل أنانيا .

ظل طفلا لا يرتفع فوق مستوى الطفولة فى التفكير فيدرك الله ويؤمن باليوم الآخر .

ظل متشبثا بإيمانه بالدنيا وحدها ..

ظل يقع تحت التأثير بالاتجاه المادى .

---

(١) الأعراف : ٢٦.

ولذا فالقليل من الناس هو : الذى يعبر عن شكر الله على نعمة العقل. بالإيمان به ، وباليوم الآخر .أما الغالبية منهم فتتأثر بالاتجاه المادى ،وتختلف مستوياتها فى هذا الاتجاه . وأشد هذه المستويات وأعنفها هو ذلك المستوى الذى يدفع باللانسان إلى أن ينكر كل دليل واضح . على أن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة الماديةالدنيوية، فيكفر بالبعث ، وبما يقع بعدهفى المرحلة الثانية من حياة الإنسان)

وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

ومثل هذه الأدلة المادية الواضحة وحياة الإنسان التى يسوقها القرآن الكريم فى هذه السورة : على البعث والحياة الأخروية مايذكر فىالآيات التالية فى قوله تعالى . « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون (أى فقد خلقكم وكثركم فيها . وكما خلقكم يجمعكم إليه فى الاخرة) وهوالذى يحيى ويميت (لأنه وحده : القادر على الإحياء والإماتة .. القادر علىالشىء ونقيضه . وليس البعث إلا حياة جديدة بعد موت) وله اختلاف الليل والنهار (وله خلقالحياة ، والموت .. كما لهخلق الليل والنهار . وهمامتناقضان

أيضاً : هذا مضيء ... وذاك مظلم وكونه سبحانه يخلق الشيء ونقيضه آية على تمام قدرته) أفلا تعقلون ؟ (ولكن لا يستخلص من هذا المبدأ — وهو خلق الشيء ونقيضه — القدرة التامة له على فعل كل شيء إلا من يستخدم عقله .

والانسان لا يستخدم عقله فى التمييز بين الأشياء واستخلاص النتائج منها إلا إذا ارتفع به فوق شهواته وغرائزه) . بل قالوا : مثل ما قال الأولون قالوا : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعثون ؟ . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل (ولأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم استخداماً سليما فى فهم مخلوقات الله فى كونه ، واستخلاص وحدته فى الألوهية منها ، وللوصول منها كذلك إلى الايمان بالبعث ، لأنه يقع تحت قدرة الله سبحانه .. أنكروا البعث واستحال فى نظرهم وقوعه ، بعد أن يتحول الإنسان بموته إلى تراب وعظام . وساوقوا بإنكارهم الحياة الأخروية .. وإنكار من سبقوهم من الماديين : من آبائهم وأجدادهم فى هذا الشأن . وجاء تعبيرهم عن هذا الانكار مثل ما عبر به أولئكم السابقون . واستدلوا على عدم وقوعه بأن آباءهم الأولين وعدوا بالجزاء على إنكار البعث ، مثل ما وعدواهم . ومع ذلك لم يتحقق ما وعدوا به هم وآباؤهم من قبل) إن هذا إلا أساطير الأولين (ولذا : ليس صحيحاً أنه من عند الله : ما طلب إليهم الإيمان به من البعث واليوم الآخر . وإنما هو من الأباطيل الشائعة التى كان يرددها القدماء ، ولا دليل عليها) . قل لمن الأرض ومن فيها ، إن كنتم تعلمون ؟ . سيقولون لله (ينكرون البعث وينسون : أن الوجود كله لله وداخل فى دائرة خلقه وقدرته . وهم لا ينكرون ذلك فى إجابتهم لأنهم لو سئلوا عن الأرض ومن فيها لأجابوا بالإيجاب . وسيقولون : هى لله جميعاً) قل : أفلا تذكرون ؟ (وهنا يجب أن يؤنبوا على غفلتهم وعدم تذكرهم) . قل : من رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ؟ . سيقولون : لله

(وكذلك لو سئلوا : عن السموات السبع ، ومن ربها ، وعن العرش العظيم فوقها ومن ربه لأجابوا : بأنه الله) قل : أفلا تتقون ؟ (هنا يجب أن ينبهوا : إلى أن مقتضى علمهم وإقرارهم بأن الله وحده هو صاحب الكون كله فى الأرض ، والسماء : أن يتجنبوا الشرك ، وأن يعبدوه وحده . ولكنهم بقوا على شركهم ، وفى ضلالهم ، لأنهم يقعون تحت تأثير الوثنية المادية وحدها) . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله (ولو سئلوا أيضاً : من بيده تصريف الأمور فى هذا الكون كله وتدبير شأنها وعمن يغيث غيره ولا يستغاث من أحد ؟ لم يكن جوابهم إلا أن يقولوا : الله وحده) قل : فأنى تسحرون (وعندئذ يواجهون بأن نتيجة ذلك : ألا يخدعوا فيحيدوا عن الوحدة فى الألوهية إلى الشرك فيها) . بل أتيناهم بالحق ، وإنهم لكاذبون (وإن هؤلاء الماديين فى إجابتهم عن هذه الأسئلة الثلاثة :

لمن الأرض ومن فيها ؟ ..

من هو رب السموات السبع ورب العرش ؟ ..

من بيده تدبير كل شىء فى هذا الكون ؟ ..

لم يكونوا صادقين مع أنفسهم إذ أجابوا : بنعم ، وأن الأمر فى ذلك كله لله وحده . لأن موقفهم من الوحدة فى الألوهية ، واندفاعهم فى الوثنية المادية ، وانكارهم للحياة الأخروية .. يكذبهم بما يجيبون به على نحو ما يقولون . رغم أن القرآن كشف لهم عن الحق ، ووضح لهم ما هم فيه من باطل .

وهنا أمران إذن لإقامة الحجة على من ينكر البعث والحياة الأخروية :

الأمر الأول — أن الله يذرأ ويكثر الخلق ، ثم يجمعها يوم اللقاء .. ويحيى ويميت .. وإليه يعود اختلاف الكائنات الطبيعية ، كظلام الليل ،

وضوء النهار . وإذن هو قادر على الشيء ونقيضه . ومن يقدر على الشيء ونقيضه فى الوجود يكون واحداً ، وتكون منه بداية الوجود . . وإليه النهاية له . والبعث هو النهاية للوجود وانتهاؤه إلى المولى سبحانه .

الأمر الثانى : أنه لو سئل إنسان ما ، لم يتحيز بعد ، من : خالق ما على الأرض ؟ . ومن فى السموات؟ .. وعن المدبر لكل ما بهما والمنقذ لما عداه ، ولا ينقذه أحد سواه؟ .. لم يكن له من جواب ، سوى ، أن يقول : الله. لأن ذلك أمر فطرى مودع فيه . فإذا تشكك أو شكك غيره فى الجواب على هذه الأسئلة ، لم يكن باقياً على الفطرة فى سلامتها وصفائها . وإذا كان الله هو الخالق لكل من الأرض والسموات ، والمدبر لهما .. فإن من التدبير لأمر الكائنات كلها . جمع الناس لميقات معلوم ، ليرى كل عمله ويستقبل جزاءه من خالقه عليه ، طالما أن الدنيا فى الاستمتاع بها ، أو فى الحرمان من متعها : ليست جزاء ، وإنما هى اختبار ، وامتحان فقط . فعدم الإيمان بالبعث قضية لا ترجع إلى النظرة فى الكائنات المخلوقة . . ولا إلى منطق الإنسان . وإنما تعود لأمر آخر : هو الوقوع تحت تأثير المادية وما يجر إليه هذا التأثير من الشرك وإنكار القيم البشرية كلها ، وانحراف المنطق البشرى) .

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

ومما تهتم به سورة . المؤمنون — بجانب الرد على استناد الماديين الوثنيين فى رفضهم لرسالة المصطفى عليه السلام ، إلى بشريته . . وبجانب إنكارهم للبعث فى الآخرة — قضية قياسهم الله على الإنسان فى : النسل . . والند .

فينسبون إلى الله أولاداً ويجعلون الملائكة بنات له • كما يشركون معه غيره من الموجودات فى العبادة والطاعة . فيرد القرآن فى هذه السورة على هذه القضية الثالثة بقول الله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله (فينفى أن يكون الله على نحو من الإنسان ، فيكون له ولد ، أو له ند هو إله آخر معه) إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض لأنه لوكان له ولد • لكان شريكا له فى الألوهية ولوكان معه ندمن آلهة أخرى ، لتعددت الآلهة . وتعدد الآلهة — سواء عن طريق الولد ، أو الند — يؤدى إلى اقتسام مجالات المخلوقات بينها • فيكون لكل إله مجال محدد ومعين من المخلوقات . وذلك بحكم أنها جميعها متساوية فى صفات الإله .ومن بين هذه الصفات : أنها قادرة على الخلق والإيجاد . وإذا اقتسمت الآلهة مجالات المخلوقات بينها ، فإن بعضها سيعلو ويطغى على البعض الآخر ، بحكم المناقشة بينها . أى أن بعضها سيعرض مظاهر قدرته على البعض الآخر .وهنا يكون التخاصم .. فالتقاتل . . فالهزيمة أو النصر . ومن يهزم لايكون إلها يستحق العبادة . ومن ينتصر اليوم إذا كان أكثر من واحد ، فإنه سيتقاتل غداً ، وتكون الهزيمة أو النصر كذلك . . إلى أن يبقى منتصر واحد ، وهو المستحق للعبودية وحده . وإذن : افتراض التعدد فى الآلهة عن طريق الولد • أو الند — يؤدى فى النهاية إلى استحالته فى واقع الأمر) سبحان الله عما يصفون (ومن أجل هذه الاستحالة فى تعدد الآلهة فى واقع الأمر . . يجب تنزيه الله عما يصفه به الوثنيون الماديون فى مكة • من أن له ولدا أو نداً . . كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الزخرف : (**وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن** : **إناثا** (أى بنات لله سبحانه) **أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** »(١) .. وكما جاء فى سورة إبراهيم : **(وجعلوا لله أندادا** ؛

(١) الزخرف : ١٩ .

ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار »(١) . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون (وبجانب استحالة التعدد فى الآلهة فى واقع الأمر ، لما وضح قبلا .. فإن الله كذلك يتصف بالعلم الشامل : للمشاهد، وغير المشاهد .. ولما مضى ،ولما هوآت . ومن يكون علمه شاملا يجب أن يكون واحداً ، غير متعدد . لأن الشمول لا يتحقق إلا لواحد.إذ علم الكثرة علم محدود ، وغير شامل بالنسبة لكل واحد فيها . ولذا يجب : أن نكرر : بأن الله يتنزه تماماً عن وصف الماديين له بالشرك عن أى طريق)

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

وإزاء رفض الماديين بمكة لدعوة الرسول عليه السلام ، وإثارتهم مشاكل هى من تصوراتهم المغرضة : فى طريق رسالته . كانت تضيق نفسه صلوات الله عليه . وربما كان يستعجل ربه العذاب الذى يحل بهم ، كما يستعجله الخلاص من جوهم البغيض . ولكنه كان يكتم ما يجول بنفسه . فشاء الله أن يحمله على إعلان ما يكتمه ، حتى يكون المؤمنون والآخرون على بينة منه .. وحتى يكون أصحاب الدعوة بعده عليه السلام : فى ترقب لهذا الضيق النفسى ، ساعة أن تشتد معارضة المتحدين لدعوتهم . ووقت أن ينكشف : أن معارضتهم تستهدف التلبيس بالباطل والتشويش فحسب :

---

(١) ابراهيم : ٣٠ .

« قل : رب إما تريني ما يوعدون . رب فلا تجعلني في القوم الظالمين» (أي أعلن ما في نفسك واتجه بالدعاء إلى الله : أن تكون على مشهد من إلحاق عذابه بهم ، والذي وعدهم إياه ، إن استمروا في المعارضة والتحدي ، أو أن يخلصك من هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بإلحادهم وتحديهم . وفي إعلان الرسول لما في نفسه من ضيق .. تخفيف عليها ، ودفع لنشاطها من جديد في سبيل الدعوة) . وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون (والله سبحانه في استطاعته : أن يحقق ما وعد به : هؤلاء الماديين من عذاب في مواجهة الرسول عليه السلام .. أي في استطاعته أن يستجيب لدعائه فوراً ولكن لحكمة يعلمها هو : يرجىء إنزال العقوبة بهم إلى وقت آخر) . ادفع بالتي هي أحسن : السيئة (ولذا يوثر القرآن للرسول عليه السلام : ألا يواجه تحديهم بعقاب الله لهم .. بل يواجهه بالطريق الإنساني الأمثل . وبذلك يدلل على أن رسالته تقوم على المستوى الفاضل في الإنسانية ، وتكون كذلك : مواجهته لتحديهم على هذا النحو : قدوة عملية في تطبيق مستوى الرسالة . هذا من جانب . ومن جانب آخر فإن مجتمع المؤمنين به في هذا الوقت لا يسمح بالانتقام من أعدائهم) نحن أعلم بما يصفون (والله إذ يشير على رسوله صلى الله عليه وسلم باستخدام الحكمة والطريق الأمثل في مواجهة التحديات الباطلة والعنيفة ، يعلم حقيقة مايقوله هؤلاء الماديون في شأن القرآن ، وفي شأن الرسول ، وشأن رسالته من الله . فهو يعلم : أنهم يكذبون فيما يقولون . وعلى مضى الأيام سينكشف هذا الكذب وتعلم الحقيقة . ويعلم أيضا : أن قوة المؤمنين الراهنة لاتحتمل الخصومة العنيفة لهم ، التي قديسببها انتقام الله الفوري لمعارضتهم . وهذا المبدأ ، وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن .. من المبادىء الأساسية في سياسة الأمة إزاء أعدائها ، إن كانت غير متمكنة من رد الاعتداء . على أية حال هو مبدأ له أثره الإيجابي ،

وأثره التاريخى ، إلى أوصل إلى تفاهم مشترك . وهو فى النهاية أليق بحكمة الإنسان ومنطقه) . وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين (وفى الوقت نفسه يجب عليك أيها الرسول — صلوات الله عليك — أن تستعيذ بالله وتلجأ إليه فى حمايتك من خطرات الشياطين التى تخطر بالنفس فلم يضق صدرك بفعل هؤلاء الماديين بمكة إلا تحت مراودة النفس فى شأن سلامتها من الأذى والضرر المرتقب منهم . وهذا خاطر من خطرات النفس ،من شأنه أن يقعد أو يبطىء فى سبيل الدعوة) . وأعوذ بك رب : أن يحضرون (كما يجب أن تدعو ربك وتطلب حمايته من أن تصاب بأذى منهم ، وأن تقع تحت تأثير الشهوة والهوى فى أداء رسالتك .

وتكليف الرسول عليه السلام بأن يدعو ربه ويطلب حمايته من هوى النفس وشهوتها .. هو السبيل المأمون لاستمراره فى الدعوة ، غير متأثر بأى عامل من عوامل الاغراء ، ولا بأى عامل آخر من عوامل الخوف والقلق) .

***

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾

وليس معنى أن يطلب الله إليك — أيها الرسول عليك سلامه — أن تدفع السيئة بالتى هى أحسن ، وأن تستخدم الحكمة فى معالجة معارضتهم لدعوتك ، أنه سبحانه راض عن تحديهم ومعارضتهم ، أو أنه لا يجازيهم على موقفهم هذا . فسر فى طريقك أنت ، وانتظر بعد ذلك لترى حالهم ووضعهم فى ظرفين متعاقبين .. لترى حالهم عند الموت ، ثم عند ما يرمى بهم فى نار جهنم . وفى كل ظرف من هذين الظرفين ، يعلنون الندم على ما حصل منهم .. ويرجون فى الوقت نفسه العودة إلى الدنيا على وعد منهم : أن يمارسوا عملا طيباً ، بدل ما كان من عمل سيء وقع منهم . ثم مع هذا الوعد : لا يقبل رجاؤهم فى كل مرة ، مع التأكيد :

أولا : أنهم لن تتاح لهم مثل هذه الفرصة .

وثانياً : أنه لو تتاح لهم : ما انفكوا عن صنيعهم الأول ، وهو الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى ، وبالتالى : مباشرتهم الكف ، والصد عن سبيل

الله ، وإنكار البعث والجزاء : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال : رب ارجعون . لعلى أعمل صالحاً فيما تركت (أى إن حال هؤلاء الماديين ، لحظة الموت ، هو حال السائل للعودة إليها مرة أخرى ، راجياً أن يعمل عملا مغايراً لما خلفه فى الدنيا قبل ساعة الموت . والعمل المغاير الذى يرجوه أو يتوهمه هو : العمل الصالح . .

وطلب الماديين العودة إلى الدنيا مرة أخرى لحظة الموت ، مع وعدهم بالعمل الصالح فيها . . تعبير منهم عن تشبثهم بها ، وإصرارهم على البقاء فيها . . وبالتالى : تعبير عن بقاء أثر الاتجاه المادى فى نفسهم حتى سكرة الموت) كلا : إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (ومع سؤالهم العودة إلى الدنيا مرة أخرى ، مع الأمل والرجاء فى أن يعملوا عملا صالحاً . . فإن الله سبحانه لا يجيبهم إلى ما طلبوا . لأن أمره بالموت لابد أن ينفذ . وكذلك كل أمر له ، لابد أن يأخذ طريقه إلى النفاذ . ومن وراء الموت سيكون القبر مثوى لهم إلى يوم البعث . فهم محجوبون الآن عن الدنيا والعودة إليها حتى يوم الجزاء . وهكذا : يقضى على أملهم ورجائهم فى العودة إلى ما كانوا يؤمنون به وحده ، وهو الحياة الدنيوية) . فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ، ولا يتساءلون (وحجبهم عن الحياة الدنيا فى قبورهم يستمر إلى أن تعاد الأرواح إلى أبدانها من جديد . . أى إلى يوم البعث وإعلان اللقاء مع الله للجزاء . وفى هذا اليوم ليست هناك علاقات نسب أو أية روابط أخرى تجمع وتكتل . وإنما الناس فرادى : « ولقد جئتمونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة » . ثم فى هذا اليوم ليس هناك أيضاً تساؤل فيما بينهم . لا يسأل أحد : الآخر عن ذنب ارتكبه . وإنما المسئولية عن الأعمال هى مسئولية فردية . وهذه ظاهرة تثير القلق والخوف فى نفوس أولئكم المذنبين الذين ارتكبوا فى حق البشرية جرائم الوثنية المادية . وإثارة القلق والخوف) .

(صورة أخرى من صور العذاب وغضب الله) . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم (فى هذا اليوم — وهو يوم البعث — يكون الأمر لنوع العمل وحده . فمن كان عمله صالحا وهو من ثقلت موازينه ، فهو : الناجح والناجى من العقاب. ومن كان عمله سيئا وهو من خفت موازينه فهو الخاسر والمستحق لعقاب الله وغضبه) فى جهنم خالدون. تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون (وعقاب الله لمن خفت موازينهم هو الخلود فى نار جهنم ، بعد أن تصيب النار وجوههم ، وتكلح شفاههم ، وتشوه سماتهم) . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون (وفى إقامتهم فى نار جهنم يذكرون : بأنهم كانوا يكذبون بالقرآن ، عندما كان يتلى عليهم ، وهذا هو سبب عقابهم الآن) . قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا : أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون (ولكن لسان حالهم يردد : بأن سوء العاقبة قد سيطر عليهم فى أمر دنياهم ، فهم مقدورون على ما فعلوا . وذلك بسبب أنهم كانوا فى ضلال المادية واضطراب توجيهها . وأنهم لو أخرجوا من النار الآن — وهم يرجون ذلك من الله — وعادوا إلى الدنيا فإنهم يعدون : بأنهم لا يباشرون أى انحراف من انحرافات الماديين . وإلا أقروا عندئذ — إن هم باشروا — على أنفسهم بالظلم والخسران). قال : اخسأوا فيها، ولا تكلمون (ولكن الوقت قد فات عليهم الآن ، وأصبح أمرهم مقرراً فى أعماق جهنم . ولذا كان جواب ما يتمنونه هو : أن يؤمروا بالصمت ، وعدم الكلام ، وأن يطردوا إلى العمق فى دار العقاب .

وما ينتظر الماديين المكيين من عقاب على هذا النحو ، كاف بأن يذكرهم الآن فى دنياهم : بأن ما هم فيه لا يؤدى إلا إلى سوء مصيرهم هم . واستعمال الحكمة إذن معهم ، ودفع السيئة بالتى هى أحسن ربما يقرب بعض نفوسهم من الإيمان بالله ، ويحولهم مما هم فيه . . إلى الصراط السوى) .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

كما يذكر هؤلاء الماديون أيضاً بأنهم – بجانب تكذيبهم بالقرآن – كانوا يستهزئون بالمؤمنين ، إن هم أعلنوا عن إيمانهم ، واستغفروا الله لما مضى من أخطائهم فى مجتمعهم الجاهلى . وهذا أيضا سبب من أسباب جزائهم بالخلود فى نار جهنم. وفى الوقت نفسه هو أمارة على اتجاههم المادى فى الحياة. والمادى كما يعرف بتكذيبه لكتاب الله . . يعرف أيضاً باستهزائه وتندره من شأن المؤمنين به : « إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون (ولا ينسى لكم كذلك أيها المكيون من أصحاب الوثنية المادية : أنكم كنتم تجعلون من يعلن منكم إيمانه بالله : موضع تندر وهزء فيما بينكم ، وكنتم تبالغون فى ذلك حتى شغلتم أنفسكم بالاستهزاء منهم ، عن أن تفكروا جديا فى الله ، وفيما أنزله على رسوله عليه السلام من رسالة ، وفيما دعاكم إليه لصالح أنفسكم ، وصالح البشرية كلها ، واستهدفتم من التندر بإيمانهم واتخاذهم أضحوكة : أنكم تصدون عن سبيل الله بإرهابكم الآخرين من الضعفاء الذين يرجون لقاء الله فى اليوم الآخر). إنى جزيتهم اليوم بما صبروا : أنهم هم الفائزون (ومن تندرتم بهم بالأمس واتخذتموهم أضحوكة وهزءاً بينكم . . كان جزاؤهم اليوم ما ترون . وذلك بسبب إيمانهم ، وتحملهم أذاكم المادى ، والمعنوى . وما أصابهم اليوم من جزاء يدل على أنهم هم الفائزون عليكم . لأنهم سيتمتعون بما هم فيه إلى الأبد ..

بينما ما تمتعتم أنتم به فى دنياكم كان لفترة مؤقتة ، فضلا عن الفرق الكبير فى نوعية المتع : فى دنياكم ، وفى آخرتكم) .

﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وما مضى عليكم اليوم من عقاب فى نار جهنم — وأنتم فى بداية شأنكم معها — لو وزنتم ما مر عليكم من زمن فيها الآن بما مر عليكم فى دنياكم.. لكان إحساسكم النفسى لمشقة ما أنتم فيه الآن : أن متعتكم فى الدنيا لا تعدو أن تكون يوما أو بعض يوم ، مع أنه قد مضت عليكم السنون فى مرحلتكم الدنيوية : « قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ . قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين (فإذا سئلتم : ما عدد السنين التى مضت على إقامتكم فى دنياكم ؟ . . لكان جوابكم : أن ما مضى عليكم فى الدنيا لا يبلغ السنين . . ولا الشهور . . ولا الأسابيع : إنه يبلغ يوماً أو بعض يوم ، كما تحسونه وتتصورونه أنتم . ولذا : فأنتم ترجعون قياس الزمن لأصحاب العد والإحصاء) . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون (ولكن : مدة إقامتكم فى الدنيا — مهما كان عدد سنيها وطول الأجل فيها فى واقع الأمر — لو قورنت بما ستمكثونه فى نار جهنم . . تساوى نسبة ضئيلة جداً ، لو علمتم حقيقة الأمر ، ولذا : خسارتكم فى حياتكم ليست خسارة هينة :

إنكم استمتعتم قليلا فيما مضى ، وستشقون الآن كثيراً .

إنكم قد تمسكتم فى دنياكم بما أتعسكم فى أخراكم . ولو اعتبرتم حياة الإنسان حياة واحدة : يقضى بعضها فى الدنيا . . ويقضى الباقى منها فى

الآخرة والقبر هو البرزخ بين مرحلتى هذه الحياة ، واعتبرتم كذلك : مقياس الزمن فيها . . لآثرتم العمل من أجل المرحلة الثانية ، واتخذتم من المرحلة الأولى ميداناً لتجربة العمل الصالح ، وفقاً لهداية الله .

وهكذا : المكيون الماديون — وكذلك الماديون فى كل عهد — سيرون نتائج اتجاههم المادى فى حياتهم الدنيوية ، سيرون من حيث الكم : أن إقامتهم فى نار جهنم فى الآخرة أكثر طولا من إقامتهم بالدنيا . . وسيرون من حيث النوع : أن متعتهم بمتع الحياة الدنيا تذهب هباء أمام شقائهم بعذاب النار فى جهنم والخلود فيها) » .

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

ولا ينبغى أن يعتقد هؤلاء الماديون : أنهم خلقوا لغير هدف . .أى أنهم خلقوا هكذا عبثاً . إنهم خلقوا لعبادة الله وحده : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون** »(١) . . فكل ما فى الكون من قوى ظاهرة وأخرى خفية وجدت من قبل الله ، لتتجه إليه بالعبادة ، دون ما سواه .ولذا يجب على جميع هذه

---

(١) الذاريات : ٥٦ — ٥٧ .

القوى أن تعبر عن طاقتها بالإيمان به وحده . وقد اختبرت الملائكة فى طاعة الله فلم يعص منها إلا إبليس . واختبر الإنسان : فى شخص آدم وحواء ، فعصيا ربهما ، ولم يحل العقل الانسانى فيهما دون ذلك . فكانت رسالة الله إلى بنى الإنسان فى أجيالها المتعاقبة . وهنا : المخالفة لرسالة الله هى عصيان لله ، وفى الوقت نفسه خروج عن هدف الخلق للانسان ، ولما عداه من الكائنات الأخرى ، وهو عبادة الله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً (أى لا تعتقدوا أنكم خلقتم لغير هدف من الخالق سبحانه) وأنكم إلينا لا ترجعون (كما ينبغى ألا تعتقدوا أيضاً : أنكم لا تبعثون يوم الجزاء ، وأنكم لا تعودون إلى الله مرة أخرى . .

إنكم خلقتم لهذه العبادة .

وإنكم ستخرجون من قبوركم مرة أخرى لمواجهة الجزاء .

وهذا إنذار أخير لهؤلاء الماديين تأتى به السورة فى ختام آياتها) فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم (والله — وهو المالك للكون ، والحق فى ذاته ، والمعبود وحده ، والمسيطر على الأمر كله — يجب أن يتنزه عن وصف هؤلاء الماديين وخرصهم فى نسبة ما ينسبونه إليه ، من : أن له ولداً ، أو أن له شريكاً ونداً ، أو أنه ليس بقادر على أن يحيى الموتى فى قبورهم ، ويجمعهم إلى لقائه يوم الجزاء) . ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه (ولذا : كان من يشرك مع الله إلهاً آخر — كشأن هؤلاء الماديين بمكة أو فى أى عهد آخر لاحق أو سبق — من ولد ، أو ند لا برهان على وجوده فى واقع الأمر . فإنه سيلقى جزاءه من الله ، وسيجد حسابه عنده . لأن الشرك بالله ادعاء باطل فى ذاته ، ومستحيل أن يقع فى الكون . ثم فى الوقت نفسه خروج عن هدف الخلق ، وهو عبادة الله وحده) إنه لا يفلح الكافرون (ومن يشركون بالله هم كافرون به . وهم خاسرون بكفرهم . لأن متعتهم القليلة فى الدنيا لا تساوى

تعاستهم وشقاءهم الطويل فى الآخرة) . وقل : رب اغفر وارحم ، وأنت خير الراحمين (وأما أنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — فاتجه بالدعاء إلى الله : أن يغفر لك ولمن معك من المؤمنين : ما مضى من أخطاء قبل الإيمان . . أو ما يمر بخواطركم من وساوس الشيطان ونزغات الهوى وأنتم فى مواجهتكم لهؤلاء الماديين وعنادهم معكم وتحديهم لرسالتكم . وهي خواطر قد تحرج صدوركم ، أو تثير التردد فى الأمل فى نجاحكم . . كما تتجه إليه بطلب الرحمة وحمايتكم من شرور أعدائكم الوثنيين . فإنه خير من يستجيب برحمته إليكم . ومن شأن هذا الدعاء أن يقوى الأمل فى نفوس المؤمنين ، ويضعف فيها هواجس اليأس . والمؤمنون — لقلتهم يومئذ ، واضطهادهم من أشرار الماديين : فى حاجة إلى قوة صلاتهم بالله وتزايد اعتمادهم عليه) » .

★★★

كتب للمــؤلف

١ ــ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي — الطبعة الثامنة
٢ ــ تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق — الطبعة الثانية
٣ ــ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة — الطبعة الثانية
٤ ــ خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر — الطبعة الثانية
٥ ــ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى — الطبعة الثامنة
٦ ــ الفكر الاسلامى فى تطوره — الطبعة الأولى
٧ ــ الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة
٨ ــ رأى الدين بين السائل والمجيب جزآن معا ــ مزيدة ومنقحة الطبعة الثالثة
٩ ــ نحو القرآن — الطبعة الأولى
١٠ــ القرآن والمجتمع — الطبعة الأولى
١١ ــ من مفاهيم القرآن ــ فى العقيدة والسلوك — الطبعة الأولى
١٢ ــ منهج القرآن ــ فى تطوير المجتمع — الطبعة الأولى
١٣ ــ المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم — الطبعةالأولى
١٤ــ القرآن ‥ فى مواجهة المادية
١٥ــ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر — الطبعة الثامنة
١٦ ــ طبقية المجتمع الأوربى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى — الطبعة الثانية
١٧ ــ نظام التأمين فى هدى الاسلام وضرورة المجتمع المعاصر — الطبعة الأولى
١٨ ــ الاسلام ونظم الحكم المعاصرة — الطبعة الثانية
١٩ ــ غيوم تحجب الاسلام — الطبعة الأولى
٢٠ ــ الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم — الطبعةالثامنة
٢١ ــ الدينو الحضارة الانسانية — الطبعة الثالثة
٢٢ ــ عقبات فى طريق الاسلام
٢٣ ــ الاسلام والادارة ــ الحكومة ــ
٢٤ ــ الاسلام والاقتصاد
٢٥ ــ الاسلام دعوة وليس ثورة
٢٦ ــ الاسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة
٢٧ ــ مستقبل الاسلام والقرن الخامس عشر الهجرى
٢٨ ــ الاسلام والرق
٢٩ ــ مشكلات المجتمعات الاسلامية والفراغ من الاسلام

تطلب من : مكتبة وهبه ١٤ شارع الجمهورية ــ عابدين ــ القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧

للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

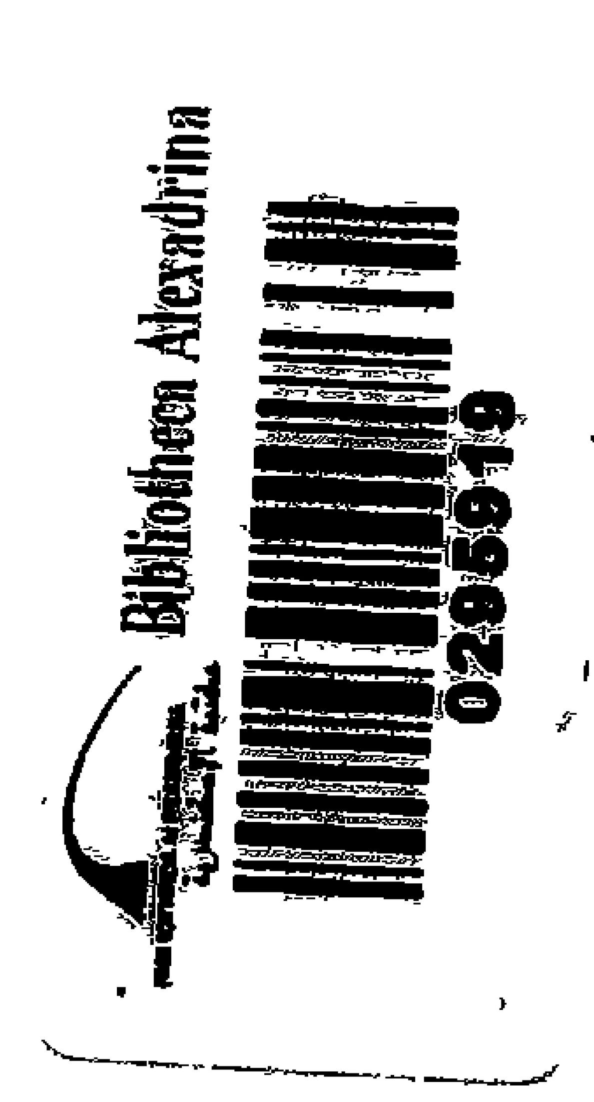
اولا : تفسير السور المكية :

١ ـ سورة الانعام
٢ ـ سورة الأعراف
٣ ـ سورة يونس
٤ ـ سورة هـود
٥ ـ سورة يوسف
٦ ـ سورة ابراهيم
٧ ـ سورة الرعد
٨ ـ سورة الحجر
٩ ـ سورة النحل
١٠ـ سورة الاسراء
١١ـ سورة الكهف
١٢ـ سورة مريم
١٣ـ سورة طه
١٤ـ سورة الأنبياء
١٥ـ سورة المؤمنون
١٦ـ سورة الفرقان
١٧ـ سورة الشعراء
١٨ـسورة النمل
١٩ـ سورة القصص
٢٠ـ سورة العنكبوت
٢١ـ سورة الصافات
٢٢ـ سورة الجن
٢٣ـ جزء عم

تطلب من : مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

رقم الايداع ٢٢/٤/٧٦
لترقيم الدولى ٨ ـ ٢٩ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) ـ القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ــ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩